معالم التشيع في أدب الدولة السعدية

• محمد بن تاويت

حينما تعرضنا في تفسير "السبعية" في شعر أبي حفص السلمي، وقلنا بخطورتها، لما قامت عليه من فكرة هذه "السبعية" عند الشيعة، لم نرد بذلك أن أبا حفص كان يعتقد بها من تفاصيلها، بل لعله لم يكن قد اطلع على تلك التفاصيل قط، وإلا لكان يربأ بنفسه عما ورد في نهايتها بالذات، وإنما كانت فكرة السبعية، ممثلة في ذهن القوم على الجملة، شأنها في ذلك شأن باقي المبادئ التي نزحت إلى المغرب، فاستفاد منها إلى حد، أو اعتقدها وعمل بها إلى حد كذلك. فالتطرف في الأفكار والاستماتة في جوهريتها والاعتناق لها كمذهب مجرد يجب أن يدفاع عنه، في حد ذاته، هذا ما لم يعرفه المغرب، كما عرفه غيره في المشرق على الخصوص.

نقول بهذا الحكم ولا نخص به عصراً من العصور، فمن قبل اعتنق المغرب المسيحية قبل أن يعتنقها العالم الغربي، ولكنه اعتنقها في ظروف أملت عليه هذا الاعتناق وسرعان ما ودع هذه المسيحية بدون أسف على فراقها — كما قيل — لما رآها غير محققة لآماله ولا مخلصة لرقبته من نير الظلم والعدوان ورقة العبودية والطغيان..

فلو كان اعتناقه هذا عميقاً كل العمق ومتجرداً كل التجرد، غير ملائم فيه بينه وبين حيثياته الخاصة، لوجدنا المغرب لا يختلف عن الشرق في شيء، لا يختلف عن مصر أو الشام أو العراق مثلاً، فالاسلام لم يطارد ديناً من الأديان، بل أبقى عليها في الشرق، كما أبقى على المسيحية بالأندلس، أو الموسوية بالمغرب نفسه، في قومها من بني اسرائيل..

وعلى كل حال فإن التشيع طرق المغرب في عهد مبكر، ووجد له صدى به، واعتنقه القوم، لما كان يحيط بهم من ظروف اجتماعية ثم تدخلت السياسة واستغلت هاته الظروف وعملت عملها، الذي سجله التاريخ.

أما الأدب فإنه لم يسجل لنا إلا صفحات، كانت أولاها تقرأ في القرن الخامس، وبتلك الهاشميات التي خلدها لنا ديوان ابن دراج وقد نظمها هذا في امراء بني حمود الادراسة، أصحاب سبتة وطنجة وبلاد الأندلس، وخصوصاً منهم على بن حمود وأخاه القاسم وابنه يحيى الملقب بالمعتلي.

فهذه هي المرحلة الأدبية الأولى، التي تنفس فيها التشيع المعتدل، تنفساً قصيراً، ولكنها سرعان ما خفت صوته بقيام دولة المرابطين.

وبسقوط هذه الدولة العتيدة وقيام الدولة الموحدية، وجدنا التشيع يطل علينا، في قوة وتطرف إلى حد ما وأكثر مما كان عليه أيام بني حمود، وفي مبادئ معقدة استغلتها الدولة استغلالاً عظيماً.

وبسقوط هذه الدولة وقيام دولة بني مرين، لم يعد للتشيع ذكر ولا مناسبة يستغلها، لأن ذلك لم يكن في صالح الدولة نفسها.

فلما جاءت دولة الاشراف السعديين، كانت حريصة كل الحرص أولاً على بناء دعائهما على هذا الشرف، فانساقت بذلك إلى فكرة المهدي، وهي فكرة عمل بها المهدي ابن تومرت الذي ادعى أنه من الأرومة النبوية.

ووقف الأمر عند هذا الحد، أو لم يسجل لنا الأدب شيئاً أكثر من هذا، فلما كانت نوبة المنصور، تعقد الأمر، وتدخلت في تعقده عوامل سياسية عنيفة، مواجهة للخطر الطوراني الذي كان يهدد الدولة في كل حين، فكان لا بد من درء هذا الخطر بكل الوسائل التي كان منها هذا التشيع الذي ظهر متحفظاً في شعر الدولة، وفي بعض نثرها، كما ظهر في تشجيعها للتأليف الذي يكتسي صبغة التشيع.

والواقع أن الأتراك، كانوا متضايقين من الصفويين الشيعة في الشرق، والسعديين العلويين في الغرب، وكان هؤلاء بدورهم يمدون يدهم نحو الشرق، فيتصلون في مصر بآل اليكري ويبثون تجارهم في الشام وحلب على الخصوص للدعاية لهم. أما الصفويون فقد وقعت في يدي لهم وثيقتان سنة ١٩٤٩ يحاولون بهما ربط علاقتهم بالمغرب. ولعل نشاط "انطوني شركلي" بعيد وفاة المنصور، في هذا كانت له سوابق فيما مضى...

نعم. وجدنا أحمد المنصور، العالم المجدد، يثيب على احياء التشيع بالتأليف، ويجيز سعيد الماغوسي بالآلاف من أوق الذهب الابريز، ويجري عليه الجرايات السنية، لأنه شرح كتاب "درر السمط في مناقب السبط" لأن الآبار، الذي نعى عليه فيه أنه "كتاب تشتم منه رائحة التشيع" كما قال ابن الأحمر وغيره..

أما النصوص الأدبية فهي طافحة بهذه الكلمات المعروفة عند الشيعة، من مثل السبط والوارث والوصي وابن البتول[1] وما إلى هذه الكلمات التي وجدناها تروج في أشعار رجال الدولة من كتاب وقواد وغيرهم، كما وردت فيها وفي غيرها عبارة تومئ إلى مبادئ الشيعة في بعض الأحيان، وقد تحتج لتلك المبادئ التي تتصل بالخلافة على الخصوص.

فمن ذلك شعر وزير الدولة الكاتب أبي فارس عبد العزيز الفشتالي الذي يقول في إحدى مولدياته:

هذا الذي يجبي البلاد بعدله ... ويعيدها نشراً وكنَّ رماما

هذا الذي وعد الاله بأنه ... يطوي البلاد ويفتح الاهراما

ويقول في إحدى مدائحه للمنصور:

يروي عن المنصور فيه محمد ... ما أسندته إلى الوصي مناسب

ويقول في مدحه لولي عهده محمد الشيخ:

فاني بكم آل الوصي لفي حمى ... يعز على الشعري تسنمه رقيا

ويقول أيضاً:

يحكي عن المنصور في عزماته ... وعن الوصي أبيه في "صفين"

ومما كتبه هذا الوزير على قبر المهدي قوله:

.."وملأ الأرض عدلاً وظهرها من أدناس الجور" وهذه لا شك إيماءة إلى فكرة المهدي عند الشيعة.

ومن هذا ما ورد في شعر شيخ الجماعة عبد الواحد بن أحمد الشريف، من قصيدة له مولدية:

---

(١) لا شك أن وصف فاطمة بالبتول مما يصلها بمريم ابنة عمران، وقد قال لي أستاذي الدكتور ابراهيم أمين، أنه لما زار ايران وتردد على مساجدها، كانت تواجهه لوحات فنية مؤثرة تمثل مصرع الحسين، بمثل ما تمثل هذه اللوحات في الكنائس تصليب المسيح.

يا تاج رسل الله يا قطب الهدى كادت تذوب لبينك الأعضاء
لكن دنو سبطك المنصور قد زال العناء به وزال الداء
كل الملوك سواه يخشى الوغى والحرب وهو تخافه الهيجاء
فلو أنه في "كربلاء" شاهد ما عمَّ فيها المسلمين بلاء

ومنه ما ورد في شعر الكاتب أبي عبد الله بن علي الهزوالي من إحدى مدائحه للمنصور:

إلى الملك الشهم الذي لقحت به لقاح الحروب بكرها وعوانها
إلى ابن البتول المجتبى من نجارها وفرع العلا المعتام من خيراتها

ومنه ما ورد في شعر الكاتب الحسن المسفيوي من إحدى مدائحه للمنصور:

يقر بك المهدي عينا وقبله الـ وصي بما أعقبت من طيب الذكر
بمن لو رمى "صفين" يوم جلاده لحلت بجيش الشام فاقرة الظهر

ويقول في مرثية لبعض أولاد المنصور:

تناول شلوه رضوان كيما يؤديه إلى مهدي البتول

ويذكر له هذا البيت، الوارد في قصيدة يمدح بها المنصور:

لا بد من انجاز ما في الغيب من أبراز موعود به ومدخر

ينسب له هذه القصية الفشتالي في مناهله، وينسبها المقري للقائد أبي الحسن الشياظمي في روضته. وأبو الحسن هذا قد أفصح تمام الافصاح عن الفكرة الشيعية في الامامة أو الخلافة، وذلك إذ يقول من قصيدة له ميلادية:

أن الخلافة في ذؤابة هاشم لا يعدها للغير قول وفاق
لهم الأحق ومن عداهم معتد فلهم وراثتها بالاستحقاق
أصل رسا في المكرمات ونسبة علوية في منتهى الاغراق

وهكذا فإن أصداء التشيع كانت تتردد في جنبات الدولة برجالها، أما من عداهم من أدباء وغيرهم فلم نسمع لهم في ذلك ذكراً..